فعالية اللغة العربية

للأستاذ علال الفاسي

قضية العربية فى المغرب قضية مزمنة والحق يقال ، فهى ليست بنت اليوم ولا ناشئة فقط عن أثر الاستعمار فى وطننا ، ولكنها فى اصلها ناشئة عن تقصير أجدادنا العرب فى اكمال مهمة التعريب فى المغرب من جهة ، وعن الركود الذى أصاب المغرب وسائر العالم الاسلامى من جهة أخرى . وقد وجد الاستعمار فى هذين المظهرين لتخلفنا اللغوى والاجتماعى وسيلة حاول أن يستغلها ليجهز على وجودنا كأمة متحدة بل على وجودنا ككائن حى ويجعل منا امتدادا لوجوده بما يكونه من عناصر اللغة والفكر الذى هو محتواها .

وحينما حل عهد الاستقلال شعر المخلصون من أبناء الوطن بضرورة العمل على تقوية الكيان الوطنى ، وتدعيم الوجود الذاتى الحر ، وكان أول ما فكروا فيه مسألة اللغة التى برزت فى شكل الحاجة الى المغربة والى التعريب .

وطبعا فان كل عمل صالح لا يعدم صعوبات من نفسه والمعارضين من ذوى المصالح أو المستفيدين من الوضع الذى خلفه الاستعمار ، وهكذا فشل القائمون على العمل ، بينما أخذت الجهود المغربية جوانب متوازية لتحقيق الهدف المنشود .

الامة وعنوان وجودها ، وأن كل أمة لا يمكن أن تتحقق من ذاتيتها الا فى لسانها القومى المعبر عن تفكيرها التلقائى ، ولقد صدق «جوستاف لوبون» حينما قال : (اذا استعبدت أمة ففى يدها مفتاح سجنها ما احتفظت بلغتها) . واننى لارجو أن يتحد رجالنا على خدمة اللغة العربية وتمهيد الطرق لنموها وتطورها ، حتى يضمنوا للمغرب وللاسلام فيه ، حياة عربية موحدة ، تستكمل ما بدأه أجدادنا من غرس ناجح للعروبة فى هذه الارض الحبيبة ، وبذلك تكمل وحدتنا اللغوية ، التى هى ضرورة لنا ولوحدة العالم العربى كله .

مشاكل العربية فى المغرب

وطريقة علاجها

قلت ان مشكلة العربية فى بلادنا مزمنة ، واعنى بذلك ان التعريب الذى بدأه أجدادنا لم يتم فى هذا الوطن ، فما يزال قسم من جبال المغرب لا يتكلم العربية ولا يتقن الكلام بها ، وهذا على العكس مما انتهى اليه الامر فى كل من تونس وليبيا والبلاد المشرقية ، وليس معنى هذا انى أدعو لمحو كل لهجة وطنية ، فذلك ما ليس ضروريا ، وانما أعنى انتشار اللغة الوطنية

وسأتحدث فى غضون عرض المشكلة اللغوية وطرق والدينية والادارية والتجارية فى جميع أوساط البلاد اصلاحها عن المجهود المبذول فى سبيل تحقيق التعريب على أساس أنها لغة الاتصال بين مختلف ذوى اللهجات وتسهيل طرقه . وقبل ذلك أحب أن أؤكد ـ وان كان المحلية . وليس من المعقول ان يظل المواطنون فى جهة الموضوع غير محتاج الى تأكيد ـ ان اللغة هى حياة ما ، بحاجة الى من يخاطبهم بلغة غير لغة الدولة وأدهى

من ذلك أن نحتاج أحيانا الى أن نوجه اليهم الكلام بلغة من لغات المستعمرين الذين استعبدوا بلادنا وأرادوا أن تكون لغتهم هي لغة الربط بين مختلف العناصر القومية .

اننى أوجه قبل كل شيء اللوم على أجدادنا من رجال العرب الذين حملوا رسالة الاسلام والعربية لهذا الوطن، فانهم عوضا عن أن ينكبوا على العمل لاكمال مهمتهم التاريخية المقدسة ، شغلوا أنفسهم بالتطاحن على الغنائم وعلى مقاعد الحكم ، وخلفوا فى وطننا مشاكل اجتماعية لا يمكننا أن نتجاهل مصدرها اذا كنا نريد أن نبحث عن الداء، ونلتمس له الدواء .

لقد وصل آباؤنا الى المغرب ليؤدوا رسالة الاسلام كاملة ولكنهم سرعان ما اتصلوا بالجبال المغربية ، فأخذ الحاكمون منهم يتملقون الجمهور ويبذلون أقصى الجهد لرضاته فى سبيل الاستعانة به على خصومهم السياسيين — واشتغل الاشراف وذرية الصالحين منهم بتكوين ارستوقراطية خاصة لا تعنى بغير الاستغلال للشعب والإستفادة منه باسم الصلاح الموروث والسلالة المقدسة . وهكذا لم يواصل الابناء ما عمل له الآباء من نشر للدين وللغة القرآن فى هذه الربوع ، ولولا طائفة من رجال العلم الذين وفوا للميراث النبوى الذى ورثوه ، ولولا هذه المعاهد والزوايا التى كان يؤسسها أولئك المخلصون ، ولولا الجهود التى بذلتها الدولتان البربريتان المرابطية والموحدية فى خدمة العربية ، لكان الامر اخطر مما هو عليه الآن . ولدخلت العربية فى خبر كان فى المغرب .

وقد زاد فى الطين بلة ، الاضطراب الذى صاحب المغرب فى تاريخه كله والذى انتهى الى تباعد الاتصال الفردى بين مختلف الاقاليم المغربية ثم انعزال بعض الجبال التى وان احتفظت بارتباطها السياسى بالدولة فقد عاشت اجيالا حياة خاصة بها تتطور فى دائرة العزلة وتنسى ما عرفته من العربية التى لا يبقى لها وجود فى غير المسجد والكتاب القرآنى وعلى ألسنة بعض الفقهاء . (وبعض المشارطين) .

فاذا أضفنا الى هذا وذاك ، تلك العلة التى صاحبت الثقافة العربية فى كل انحاء العالم ، وهى انها تطورت فى دائرة ضيقة من العلماء واللغويين والمفكرين ، وبمعزل عن عامة الشعب ، الامر الذى ادى الى خلق ازدواج لغوى بين لغة الكتابة ولغة الحديث ، عرفنا حقيقة الازمان الذى اشرت اليه فى مرضنا اللغوى ، وعرفنا كيف يجب أن نواجه المشكل على حقيقته لاصلاحه .

ثم هاجم الاستعمار التركى سائر بلاد العرب ما عدا المغرب ، فاضعف ذلك العربية فى مراكز ازدهارها فى بغداد والقاهرة ودمشق ، فى الوقت الذى أفل فيه نجم الاسلام والعربية فى الاندلس ، وبقى المغرب لنفسه يقاوم تيار العجمة الذى يهاجمه من الداخل ومن الخارج، ومن الحق أنه قد انتصر عليه أو أوقفه على الاقل فى أضيق حدوده . ولكنه لم يستطع أن يقوم بالمهمة على الوجه الذى كان من الممكن أن يقوم بها لو استمرت الاندلس فى تقدمها ومراكز الشرق العربى فى تفتحها، ومع ذلك فان صناعة الانشاء انحصرت فى المغرب فى القرن الماضى حسبما شهد بذلك بيرم التونسى الرحالة الذى جاب الآفاق ودرس المجتمعات العربية المختلفة .

وكانت لنكبة الاندلس آثارها المسترسلة على بلادنا فان الاسبانيين لم يقتصروا على حدود الاندلس الطبيعية ولكنهم تطلعوا الى التغلغل فى بلادنا حيث بدأوا يقصون من أطراف أرضنا ، وهكذا نزلوا الى سبتة والى مليلية والى مراكز فى الريف وفى الصحراء المغربية ، حيث أصبحت العربية فى هذا الوسط المغربى مجرد لهجة عائلية فى احياء عمالية مستعبدة .

ثم هجم الاستعمار الفرنسى على وطننا فيما هجم عليه من بلاد العرب ، ووجد نقط الضعف السابقة فحاول الاستفادة منها للقضاء على العربية وفرنسة البلاد .

ان الاستعمار اللغوى والثقافى ، طابع بارز فى أساليب الاستعمار الغربى الحديثة أتبعها فى كل الاوطان التى نكبت به . وقد حاول المستعمرون دائما ان يجعلوا من شعوب المستعمرات أمما وأفرادا على صورة المستعمر وغراره ، فكانت لغة الفاتح هى المستعملة وحدها او مع اللهجات المحلية فى كل مرافق الدولة وفى التعليم وفى المعابد احيانا ، وفى السياسة والتجارة بالاحرى ، وكان ابراز الاختلاف بين الطوائف المتساكنة فى وطن ما ومحاولة تدخل المستعمر للربط

فيما بينها بحكمه وسياسته ولغته ، من الوسائل الفعالة في السيطرة على الشعوب والهيمنة على مصيرها.

وبهذه الروح بدأ المستعمرون الفرنسيون والاسبانيون عملهم في المغرب . فكانت الفرنسية والاسبانية لغة التعليم الاساسية في كل المدارس التي تخرج الموظفين والمساعدين للدولة .

وكانت الادارات الحاكمة كلها لا تتكلم الا الفرنسية وهي العالم الذي يجد فيه العربي الحاجة الى ترجمان حسب تعبير الشاعر العربي .

ولن ننسى أبدا أننا كنا نضطر دائما الى التقدم للترجمان الحر الذي يجلس على الطاولة في مباح ادارة البريد ليكتب لنا عنوان رسائلنا الى اخواننا داخل المغرب أو خارجه بالحروف اللاتينية مقابل بعض الفلوس التي نعطيها له والتي سماها بعض الظرفاء آنذاك بضريبة الجهل باللغة الاجنبية .

وكان المستعمرون الى جانب ذلك يبثون في أذهان النخبة من رجالنا وطلبتنا ان الفرنسية مثلا ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها ، لان العربية لا تتسع لدراسة العلوم وللتعبير عن الافكار ، وليس لها ما للفرنسية من المرونة ومن القدرة على الاداء ، ولكثرة ما قيل هذا الكلام وكرر ، ولكثرة ما حيل بين المثقفين من اخواننا وبين لغتهم الاصلية ، ولكثرة ما فسر لهم الجهل الذي يشعرون به بالعربية بنقص في اللغة نفسها ، اصبحت فئة من النخبة المغربية التي تحمل شهادات عليا . تومن بتلك الاغلوطة المندسة ، حتى كتب الشرايبي في كتاب له بالفرنسية ان العربية لا يمكن أن تكون لغة المخاطبة للمغاربة ، لانهم لا يفهمون العامية فأحرى الفصحى التي تضيق عن التعبير عن الافكار والمقاصد ، وهذا ما جعل قسما من المعلمين يناقشوننا في أيام دعوتنا الاولى للتعريب بعد الاستقلال ، بعجز العربية عن اداء المهمة التي تقوم بها الفرنسية .

وقد زاد المستعمرون بعد الاستقلال دعاية أخرى ، وهي تخويف المعلمين المغاربة الذين يعلمون الفرنسية في المدارس المغربية من ضياع مستقبلهم فيما لو أصبحت العربية لغة التعليم في جميع مواد الدراسة المغربية ، وهو وان كان تخويفا في غير محله ، فانه قد اثر في بعض اخواننا الذين لم يتأخروا عن مجادلتنا بهذه الحجة في كثير من المناسبات ، أذكر منها مناسبة المحاضرة التي ألقيتها بنادي الامل في الدار البيضاء منذ بضعة أعوام .

على أن المستعمر لم يقف عمله لهدم العربية عند فرنسة التعليم والادارة ووسائل النشاط العام ، ولا عند الدعايات المختلفة والتي تلبس لكل ساعة لبوسها ولكنه تجاوز ذلك الى محاولته الاجرامية لخلق مجتمع بعيد عن العربية وعن الاسلام . وذلك حينما وضع خطوط السياسة البربرية التي تبلورت في الظهير البربري المؤرخ بـ 16 ماي 1930 والقرارات والمنشورات التي أعقبت تنفيذه .

ولقد شرحت في رسالة خاصة مطبوعة بمصر ، عناصر السياسة البربرية ومظاهر تطبيقها ، وتتلخص في نقط ثلاث :

1 – مقاومة الاسلام وتمسيح البربر .

2 – مقاومة الشريعة الاسلامية عن طريق احياء الاعراف المحلية والاتجاه نحو القانون الفرنسي والمحاكم الفرنسية .

3 – مقاومة اللغة العربية ، والحيلولة دون البربر وتعلمها والكلام بها .

فأما ما يرجع للنقطة الاولى ، فقد تجلت في تشجيع الكنيسة على عملها التبشيري الذي كانت تقوم بتوجيهه الاسقفية العامة في الرباط ونجد خبرها مفصلا في مجموعة مجلة المغرب الكاثوليكي التي كانت تصدر في العاصمة ، وفي محاولة الزام الشباب البربري الاتصال بالرهبان ولبس القبعة وغير ذلك من المظاهر الصبيانية التي كان يدفع اليها حنم الاب فوكو المتجبر . ومن أعظم مظاهره – وهو الذي يهمنا هنا – منع السلطة للعلماء وشيوخ الطرق المخلصين من القاء الدروس الدينية في المساجد وفي القبائل التي تدخل في اطار الظهير البربري ومن التجول فيها والاتصال بأفرادها واقفال العديد من المساجد والكتاتيب القرآنية وتشريد أئمتها والمشارطين فيها .

وأما مقاومة الشريعة فتتجلى طبعا في اقفال المحاكم الشرعية واحلال المحاكم العرفية محلها ، مع وضع هذه المحاكم تحت اشراف الحاكم الفرنسي الذي يقوم بوظيفة وكيل الدولة والترجمان الذي يقوم بوظيفة

كتاب الضبط واستعمال الفرنسية وحدها وهي اللهجة المحلية في كل أشغال المجلس العرفي ، وكتابة العقود في الزواج والطلاق والميراث وغيره بغير العربية .

أما البرنامج المتبع في محاربة العربية في القبائل العرفية ، فهو محو العربية من برنامج التعليم مطلقا وتكوين المدرسة البربرية الفرنسية في جميع سلمها الابتدائي والثانوي ، وعدم استعمال العربية في أي اتصال مع البربر ، ومقاومة العطارين والمتجولين لئلا ينقلوا العربية الى الجبال ، ومراقبة الناس في الشوارع وفي كل مكان حتى لا يتكلموا العربية مع أخذهم بالعقاب اذا فعلوا ، ووضع النحو والمعاجم للهجات المحلية وكتابتها بالحروف اللاتينية ، الى غير ذلك من التدابير التي اتخذها المستعمرون للتفرقة بين مواطنينا عن طريق محو الاسلام والقضاء على العربية .

ومن حسن الحظ أن الفرنسيين لم يستطيعوا ان ينجحوا موقتا وبطريق القوة ، الا فيما يرجع لاقرار المحاكم العرفية .

أما فيما يرجع للغة العربية والدين الاسلامي ، فقد قاوم الشعب في الجبال وفي الوهاد حتى انتصر على المستعمرين ، وانقلبت مجهوداتهم ضدا عليهم ، فاخواننا الامازيغ أشد تمسكا بالدين المحمدي وبالعربية والشريعة الاسلامية اليوم من كل شعب عداهم ، وذلك ما يجب أن يعد من مفاخرهم ومن مفاخر الامة الاسلامية كلها .

لقد انتصرت العربية في الجبال ، وذلك بانتشارها رغم السدود الموضوعة في وجهها أيام الاستعمار ، وقد لاحظ الفرنسيون أنفسهم انتشار العربية من جهتين ، أولا عن طريق وفرة عدد المتكلمين بها الذي كاد يعم كل القبائل والقرى ، وثانيا ، عن طريق تسرب العديد من كلماتها في اللهجات البربرية التي أصبحت تفوق نصف الكلمات التي يشتمل عليها معجم المفردات المستعملة في الحديث البربري .

لقد قاومنا السياسة البربرية بكل مظاهرها ، وتسربنا في أشد أوقات الاستعمار الى المدارس التي أسسها المستعمر لتكون صرح بناية الاستعمار ، فجعلنا منها والحمد لله قلاعا للعربية وللاسلام ، وانني لاحيي بهذه المناسبة اولئك الاخوان حواريي العروبة الاولين من طلبة معهد آزرو ، الذين عملوا هنا على مقاومة كيد المستعمر والمحافظة للبلاد على وحدتها وكيانها .

وكم أجدني سعيدا ومملوءا بالعزة والنخوة ، كلما زرت مدينة أزرو واجتمعت الى طلبة ثانويتها فوجدتهم جميعا يتحدثون بالفصحى ويناقشون بها في كل الموضوعات التي تهم بلادنا ، وقلت : هذه المدرسة التي أرادها الفرنسيون لتكون رمز نجاح سياستهم المفرقة أصبحت بفضل شهامة اخواننا الامازيغ رمز وحدة البلاد وتعلقها كلها بالعربية وبالاسلام .

لنتصور — لا قدر الله — ان المستعمرين نجحوا في تنفيذ خططهم الجهنمية ضد العروبة والدين المحمدي وتصوروا أن هذا البرنامج كان يحتوي في جملة ما يحتوي عليه ، على توسيع منطقة هذه السياسة حتى تشمل المغرب كله ، وذلك عن طريق اصدار قرارات وزارية متواصلة تدخل في كل مناسبة الاقليم الفلاني أو القبيلة الفلانية في عداد الاقاليم او القبائل ذات العرف البربري . لنتصور ذلك كله ، ولنحمد الله على أننا قد نجحنا في مقاومة مجهوداتهم ، ولنستبشر خيرا بمستقبل العربية في بلادنا ان شاء الله .

الميراث الاستعماري

لقد حصلنا على الاستقلال لهذا الجزء المهم من وطننا ، ولكننا ورثنا عن الاستعمار في هذا الميدان مخلفات لا تقل أهمية عن المخلفات الخطيرة التي نكافحها ونكاد نقضي عليها .

فهناك المناطق غير المحررة ، ومن جملتها فيما يهمنا الآن سبتة ومليلية والجزر الجعفرية ووادي الذهب . وقد وقعت الهيمنة اللغوية من طرف المستعمرين على هذه الجهات ، ولا يمكن ردها لحظيرة العروبة قبل أن تعود الى حظيرة الوطن ، ولكن والحق يقال ، كان من الممكن للدولة أن تبذل جهودا لنشر الثقافة العربية الاسلامية لمواطنينا في هذه المناطق ، عن طريق فتح مدارس ومعاهد مغربية بها ، ولو على أساس التبادل الثقافي الذي تنظمه اتفاقيات بيننا وبين الاسبان ، وكذلك تشجيع مجموعة من ابناء هذه المناطق المغربية المستعبدة على اتمام دروسهم في احدى المعاهد او الجامعات المغربية في القسم المحرر من وطننا .

والاخذ بطريقة التعاون الثقافى لا يمس أبدا موقفنا السياسى من هذه الاجزاء المغتصبة ، ولكن يساعد على الاحتفاظ بالروح القوميـــة فى وسط اخواننا ريثما يجعل الله لهم ولنا من الاستعمار مخرجا .

وهنالك قضيـــة شنقيط او موريطانيا المعروفـــة بفصاحة أبنائها وعلـو كعبهم فى الادب العربى وفى الشعر ، وقد اقتطعها الاستعمار من المغرب ، واتبع فيها سياسة ادماج زمنا ما ، ثم قـــرر أخيرا أن يجعـــل دستورها ينص على أن الفرنسية هى لغتها الرسمية ، وبذلك وضع خطة لفرنستها النهائية باسم دستـــور واستقلال مزعومـــين لجمهورية اسلاميـــة مصطنعة ، وواجب المغرب اذن للمحافظة على عروبة اقليم من أعز أقاليمه هو الكفاح المستمر لتحـــرير شنقيط وعودتها لحظيرة الوطن حيث يشملها ما يشمله من بعث واصلاح فى جميع الميادين .

وهنالك برنامج التعليم وسياسته التى كانت ترمى لفرنسة البلاد والقضاء على كيانها . وقد كان طبعا أن تبدأ الدولة بمجرد اعلان الاستقلال بالعمل على تحويل تلك السياسة وذلك البرنامج والاستعاضة عنها ببرنامج عربى وسياسة مغربية محض . وليس مـن الممكن أن نتجاهل المجهودات التى بذلتها وزارات التربية والتعليم المتعاقبة لانجاز الرغبة الشعبية التى يشعر بالحاجـــة اليها الجميع . كما أنه ليس من الممكـــن أن نتجاهل الصعوبات التى تواجه عادة كل عمل ايجابى فى هذا القبيـــل .

فالخطط الاستعمارية مـــن التغلغل فى كيـــاننا ومن الاشتباك بمجارى الحياة والاعمال الحكومية ، الى الحد الذى تجعل كل اصلاح فى جانب مرتبطا بما يمكن أن يكون عليه الامر فى الجوانب الاخرى ، فما كـــان التعريب ليتم ومغربة الادارة ما لم يقع البت فيهما كما أن المغربة ما كانت لتتم الا اذا وجـــد التقنيون باللغـــة العربية ، وهذا ما لا يمكن أن يقـــع الا باصلاح نيابة التعليم وتكوين الاطارات بالعربية ، الامر الذى لا يمكن بدوره أن يتم الا اذا تقرر تعليم العلوم بالعربية فى كل درجات سلم التعليم، وهو ما لايتحقق الا بتخريج المعلمين والاساتذة بالعربية الامر الذى يستوجب تعريب التعليم العالى ، وهل يتـــم ذلك دون تكـــوين تعليم أساسى لتلامذتنا بالعربية ، وهل يقع تعريب الابتدائى وحـــده دون تعريب الثانوى ؟ وهل ينجز هذا كلـــه دون أن تقرر وزارة المالية ضرورة اعطـــاء التعليم وتعريبـــه الاولوية فى برامجها . وهل يمكن ذلـك دون أن يقبل المشرفون على التعليم ضرورة المساهمة مـع التخطيط الاقتصادى العام وادخال اعتبار الانتـــاج فى برامـــج التعليم ، وكل ذلك يستوجب اعتبارات لا حـــد لهـا لمسائل توحيد التعليم وتنسيقه ، وتوزيـــع أقسامه . ووسائل تحويل التعليم الاصلى ، وما يكتنف ذلك كله من نقط يحوم حولها الجدل ويكثر فيها التأويل .

لقد واجه التعليم فى المغرب مشاكل لا يهمنا منهـا الا الروح التى ملكت تفكير القائمين عليه . وهى : هـــل يجب البداية بتعميم التعليم ، أم باصلاحه ، وبعبارة أخرى هل يمكن تعميم التعليم واصلاحه دفعة واحـــدة أم لا يمكن ذلـــك . فاندفعت الحكـــومة اولا الى التعميم ثم أخذت تسير فى التعميم وفى الاصلاح ، وكان النظر فى أمر التعريب لا يعدو تجارب أولية ، فقد قرر تعريب بعض السنوات المدرسية . ثم وجدت الصعوبات أثناء الدخول للثانوى اذ احتاج التلامذة الى أخذ وقت لتصحيح ما عربوه حتى يسايروا الدروس الثـــانوية ، وتنبـــه المسؤولون بعد الى أن العقدة كامنة فى ايجـــاد المعلمين بالعربية ، وذلك ما سارت فيـــه الحكومة الآن سيرا حثيثا اذا واصلته فسيؤدى لا محـــالة الى النتيجـــة المطلوبة .

وانه لمن الواجب علينا أن نعترف بما بذلته وزارات التربية والتعليم المتعاقبة من جهود لتعريب التعليم أو تكوين أسس سياسة صحيحـــة للتعريب ، منوهـــين بما قامت به من أبحاث وذللت من صعوبات قد يستهين بها غيرنا ، أما نحن فنقدرها قدرها ولا نألوا جهدا فـــى التعريف بها . كما أن من الانصاف أن نبين ملاحظاتنا على المسؤولين فى هذه الوزارات بروح لا يقصد منهـا غير المساهمة فى البناء والارشاد لوسائله .

فمن الحق ان نعترف بأن التعليـــم الابتدائى الاهلى كان فى شمال المغرب معربا اى ان مـــواد التعليـــم الابتدائى فى التعليم الاسلامى كان باللغـــة العربية ، وقد فهم المسؤولون توحيد مناطق المغرب فى التشريع وفى التوجيه على غير حقيقته . فعوضا مـن أن يحتفظوا فى مدارس الشمـــال بالعربية وحدها فى الابتدائى ، ريثما يتاح لهم تعريب التعليم فى جميع أجزاء البلاد ،

وفي جميع درجاته - أضافوا الفرنسية او الاسبانية الى العربية في مدارس الطور الاول ونفس الساعات التى لها في جنوب المغرب . وكان من الواجب أن تؤسس مجموعة مدرسية عصرية على غرار مدارس محمد الخامس أساس التعليم بها العربية ، ثم يعمل على تكثير عددها في جميع انحاء المملكة بقدر ما تهيئه من معلمين ويرد الى مناهجها شيئا فشيئا ما كان موجودا من المدارس العربية الفرنسية او الفرنسية المحض ، ولكننا ذهبنا بعكس ذلك نعمم التعليم الفرنسي العربي في عموم المغرب ، وننقل الفرنسية والاسبانية بسرعة الى شواهق جبالنا التى يجب أن نبذل كل جهد لنشر العربية فيها .

انه مهما تكن الجهود التى نبذلها للتعريب والتى نتحدث عنها ، فليس من الضرورى أن نواصل فتح المدارس باللسان الاجنبى ، ويجب أن نحل مشكلة المعلمين بالعربية بجميع الوسائل المكنة .

ولاكون اكثر وضوحا ، أحب ان أزيد في البيان فاقول : ان للتعريب جوانب عديدة يتناولها الباحثون اليوم عندنا ، ولكن هنالك جانبا لا يتنبه اليه الا القليل، وهو حماية طائفة من الاطفال الذين أسعدهم الحظ فلم يستعجموا من اول يوم وتلقينهم الدروس الاولى بالعربية وتوقيف الاسبانية والفرنسية عند الحد الذى وصل اليه الاستعمار ، ان في ذلك الخطوة الاولى للتعريب الحقيقى لمجتمعنا .

واني لاعلم ان هنالك مفكرين يثيرون هنا قضية تعدد اللغات في التعليم الابتدائى واحرى ما يفرضه ، وسيعرضون علينا كل الحجج والادلة التى قيلت في صحف الفرنسيين والانكليز والجمعيات التى أسست لفائدة التثنية اللغوية في التعليم ولكننى أقول لهؤلاء جميعا . مهلا على رسلكم فان القضية التى يدافع عنها الفرنسيون ليست الا جانبا من جوانب الوحدة الاوربية التى يعمل لها جمهور قوى بدافع عوامل اقتصادية وسياسية لا وجود لها لدينا . ومهلا على رسلكم ايضا فانني لا أريد أن أنقص من قيمة تعلم اللغات وآثارها على التقارب الانسانى والثقافى وعلى توسيع افق المعرفة عند الانسان ولكننا الآن في مرحلة تدعونا الى الحذر والى العمل بجد لندافع عن وجودنا ، وان التجربة بينت أن الفرنسية او الاسبانية حينما تدخل للمدرسة الابتدائية مع العربية وبنفس الدرجات التى دخلت بها في مدارسنا تصبح غولا تأكل العربية وتقتل الذوق العربى في نفس التعليم ، واني لا اجهل أن العربية في طورها الحاضر لم تساير بعد في اساليب تعلمها وتعليمها الطرق التى تعلم فيها تلك اللغات الاجنبية ، وذلك ما يوجب علينا أن نفسح للعربية المجال حتى تقف على قدميها ونفسح لابنائنا المجال حتى يخرجوا من الابتدائى وهم قادرون على حماية انفسهم وافكارهم الحماية اللغوية التى هى عنوان دوام الشخصية .

واذن فالواجب على الدولة ، أن تضع الى جانب المدارس العادية الآن ، تخطيطا لتأسيس مدارس عربية ليس لها من اللغات الا ما يمكن أن يكون في مثيلاتها من المدارس في البلاد التى تعنى بنفسها وبمقوماتها ثم تعمل على أن تجعل من هذه المدارس نقط الزيت التى تعم كل البلاد . وليس من المعقول أن ندع هذا النوع من التعليم لبعض المتطوعين من مؤسسى المدارس الحرة الاصلية ، أو الكتاتيب المجددة . وان كنا نقدر أهمية الدور الذى قامت وتقوم به هذه المدارس في المحافظة على العربية وننوه تنويها عاطرا بالمساعدة التى تلقاها من ميزانية وزارة التربية الوطنية والتى لولاها لما استطاعت مواصلة أداء رسالتها على الوجه المرغوب فيه .

وما دمنا نتكلم على هذا الجانب من جوانب التعريب فيجب أن نتنبه الى ضرورة العمل على نشر العربية بكل الوسائل المثيرة والتى تدخل في اطار التربية الاساسية ولا سيما في الجبال البربرية ، واني لاقترح على وزارة الانباء ، أن تنظم في الاذاعة المغربية برنامجا يوميا لتعليم لغة الكلام العربية عن طريق الاثير لاسيما وان آلات الاستماع اليوم موزعة بكثرة في كل البوادى ، فاذا أعطى قسم لتعليم لغة الكلام العربية ضمن الاذاعة فسيكون له اقبال كبير من اخواننا الذين يهمهم أن يتقنوا العربية في الجبال .

على أن الاذاعة تستطيع أن تقوم بدور فعال في تحسين لغة الكلام ، وفي اذاعة المفردات التقنية ، وكذلك التمثيل والسينما وغيرها من وسائل الدعاية التى سهلت الاتصال بين الناس .

وأيضا فان العناية بالمعاهد الدينية والمساجد ، وتكوين المرشدين الاسلاميين الفصحاء ، ومساعدتهم

على القيام بمهمتهم داخل الاراضي المغربية لن يخدم الدين والخلق فقط ، ولكنه سينشر العربية ويعين على تعمق الجمهور لفهم مفرداتها ، انه ليس هنالك شيء ألصق بحياة الفرد وسلوكه كالدين الذي يتغلغل في الفكر ويفرغه اللسان وتعمل به الجوارح . والعلماء والائمة المرشدون هم التراجمة الذين ينقلون فحوى ذلك وقالبه للفرد وللمجتمع .

مجهودنا بعد الاستقلال

لقد ورثنا بعد الحماية جهازا اداريا ضخما كان جل رجاله من الفرنسيين وكانت لغته هي الفرنسية وحدها، ولا تستعمل العربية الا في حاجة تفهيم الاهالي بعض المسائل او ابلاغهم بعض الاوامر . ولقد بدأنا مغربة الادارة عن طريق حشد المثقفين وانصافهم من اخواننا وجلهم والحق يقال ممن درسوا الفرنسية ولم يتقنوا العربية الا قليلا ، ولكن المغربة لم تستطع ان تتم كلها لان اطاراتنا الفنية ضعيفة ، الامر الذي فرض علينا الاحتفاظ بقسط لا بأس به من الاجانب في انتظار تكويننا السريع او البطيء . وقد خيل الى المسؤولين منا زمنا ، أن هذا التكوين يجب أن يكون بالفرنسية والفرنسية وحدها ، نظرا للفائدة المتوخاة لانه ما دمنا محتاجين الى عديد من الفنيين الاجانب وما دام هؤلاء في ادارتنا فليس من المعقول أن نأتيهم بموظفين فنيين مغاربة متعلمين بغير الفرنسية او لا يعرفون الفرنسية، وهذا الخطأ في التقدير ضيع علينا وقتا كان يجب أن نوزع فيه اخواننا على كل الجامعات وبكل اللغات . وفي انتظار وجودهم يجب أن ننفذ اسس التعريب التي لا بد منها ، حتى يدخلوا على أساس العمل بلغتهم واذا كان لا يزال هنالك اجانب فمن المستحسن أن يشجعوا على تعلم العربية ، او عند الضرورة تستعمل الترجمة في أضيق حدودها .

واذن فالقضية قضية اقتدار الموظفين المغاربة الموجودين والذين سيوجدون ، على القيام بوظيفتهم باللغة العربية ، ولو كانوا قد درسوا فروع اختصاصهم بمختلف اللغات الاجنبية .

هذه ، الى جانب مجهود وزارة التربية هي نقطة البداية التي قامت بتنفيذها وزارة الوظيفة العمومية والاصلاح الاداري . وهي فكرة طالما راجت في كتاباتنا وفي مناقشاتنا والتي دخلت ضمن برنامجنا . والمرحلة الاولى في هذه الخطة حسب ما جاء في مقدمة كتاب المراسلات الادارية الذي نشرته الوزارة وهي أن تقترح الوزارة على موظفي مختلف الادارات من مواطنين ومواطنات ان يعملوا على تسخير اللغة العربية واستعمالها كوسيلة واحدة فيما ينجزونه من اعمال ، فارضة على نفسها كذلك أن تعمل جادة في رفع مستوى تكوين اولئك الموظفين حتى لا تبقى لغة التخاطب بينهم وبين المواطنين الذين يطرقون أبواب مكاتبهم الادارية فحسب ، بل لتصبح وحدها — من غير اي منافس — لغة المراسلة ولغة الاتصالات الادارية .

وقد أرادت الوزارة قبل كل شيء أن تحرر موظفيها من مركب النقص الذي يشعرون به نحو لغة بلادهم ونحو أنفسهم ، ونظمت في سبيل ذلك مئات المراكز التعليمية لموظفي الاطارات الوسطى والثانوية ، وفرضت النجاح فيها كشرط لكل تقدم في الاطار ، وستفرض ذلك نفسه على موظفي الاطارات العليا . ان هذه الخطوة الجريئة متى بلغت مداها ستساعد على تعريب الادارة في أقرب وقت ممكن ، وستسهل على المتخرجين بالعربية او المتقنين للعربية العمل في جو عربي لا تسد عليه العجمة باب التفتح والنمو .

ومن الانصاف أن نقول ان هذه الخطوة تفقد قيمتها اذا لم تتم الوزارة ما وعدت به من خطوات أخرى في سبيل تعريب الادارة المغربية والقائمين عليها ولا سيما في سبيل تعريب المسؤولين الكبار الذين يفكرون ويكتبون بالفرنسية ، فمن العار أن تظل المشروعات التي تعرض على الدولة تكتب بالفرنسية ثم تنقل بعد ذلك الى العربية ، واسلوبها الفرنسي باد في اللغة وفي الفكر .

وكان يقف أمامنا القضاء العصري بجميع جهازه . ذلك القضاء الذي ورثناه عن الاستعمار بقداسته واجراءاته ولغته وبقضاته الاجانب ايضا ، ومن حسن الحظ ان القانون الذي صادق عليه البرلمان أخيرا قضى بتعريب القضاء في جميع درجاته فانتهت بذلك خرافة الضرورة الفنية في هذا الجانب من نشاطنا القومي .

ومن حسن الحظ ايضا أن القسم العربي لكليتي الحقوق والآداب والمدرسة الادارية العربية بدأت تعد الكثير من

حملة شهاداتها بالعربية المحض أوالمختلطة ، ولكن هؤلاء انفسهم يظلون فى اثناء ممارستهم للعمل بحاجة الى جو عربى لا بد أن يساهموا فى خلقه ، ولا بد ان تكون نية الحكومة متجهة بصفة جدية الى وجوده ، فالقوانين المغربية اليوم لم تجمع كلها ، ولم يعرب ما هو موجود منها . مع أن ذلك فى مقدمة الخطوات التى يجب أن يعمل لها المجاهدون فى سبيل التعريب بالمغرب .

مشاكل اللغة العربية

والآن لنعرض الى جانب آخر من جوانب العمل على ضمان مستقبل زاهر للعربية فى بلادنا وفى كل البلاد ، وهذا الجانب مهم جدا لانه يتعلق بحيوية العربية ومقدرتها على التطور ومسايرة روح العصر ، دون أن تنقطع الصلة بالماضى او تخرج عن روح الفلسفة اللغوية التى سايرتها دائما .

واذا نظرنا الى لغة العرب اليوم ، نجد من جهة العامية التى تتحدث بها كل بلد أو اقليم من أقاليم العرب ، واللغة الفصحى القديمة التى تدرسها ثلة من المثقفين وتحتاج فى تفهمها الى حل المفردات ثم تجميع المعنى المقصود ، من جهة ثانية ، وبينهما هذه الفصحى الحديثة التى هى لغة الكتابة والتحرير والخطابة ، التى هى فى الواقع محاولة ترمى الى المحافظة على اللغة القديمة ورفع مستوى العامية اليها او كانها صلح ما بين العامية والفصحى .

وقد استطاعت اللغة العربية العصرية أن تحافظ على الطابع العربى فى النحو وفى الاساليب البلاغية ، وبذلك يمكن ان يقال بهذا الاعتبار انها امتداد للفصحى القديمة فى شكل حديث او تعبير عربى عن أسلوب الحياة الجديدة ، ولكن هذه الفصحى الحديثة ليست تلقائية بالمعنى الذى يجب ان تكون عليه اللغة الذاتية ، ان فيها ولا شك نوعا من الاصطناع الذى أحوج اليه الدرس والتعمق واكتناه أسرار اللغة ، وأحيانا التعبير عن الفكر الذى يفكر بلغة أخرى ، ومع ذلك فاذا نحن قارنا علاقة العربية الحديثة بلغة القرآن نجد الصلة متينة ومستمرة بعكس ما جرى للعبرية الحديثة التي ابتعدت كثيرا عن لغة التوراة ، لأن أدباء العربية والمعنيين بشؤونها اللغوية هم قبل كل شيء رجال العربية

رجال اللغة ولا أسرارها .

ولغتها بعكس الواضعين للعبرية الحديثة فلم يكونوا من

والمسألة اليوم ، هى كيف يرتفع مستوى العربية الجديدة ويسع إفق دلالاتها حتى يشمل كل جوانب الحياة والنشاط العصرية مع المحافظة لها على هذه الصلة المتينة بالضاد القديمة وبالبيان القرآني المعجز ؟ ثم كيف يمكن العمل لتصبح اللغة الفصحى الحديثة لغة الخطاب والمعاملة فى الوقت الذى هى فيه لغة الكتابة والخطابة والتأليف .؟

وهذا ما يشغل المصلحين الذين يعنون بمصير اللغة العربية فى بلادنا وفى سائر بلاد العرب ، وقد أسست وزارة التربية الوطنيةمعهدا للتعريب (1) ليقوم بالبحث والدراسة لحل مشاكله وهو فى اتصال مستمر مع المجهودات العربية فى البلدان الاخرى عن طريق المكتب الدائم لمؤتمر التعريب وقد عقد هذا المكتب عدة مؤتمرات للتعريب فى الرباط وأقرت مناهج عمله فى اطار الجامعة العربية .

وقد قسم معهد التعريب ميادين العمل لصالح العربية الى قسمين : قسم داخلى للغة وقسم خارجى عن اللغة .

وسنجارى هذا التقسيم فيما نتناوله من بحث فى هذا الحديث .

القسم الداخلى

أ ـ الكتابة ، لقد شعر العرب منذ بداية النهضة الحديثة بالنقص الذى يجدونه فى الكتابة العربية التى تحتاج الى الشكل ، ولا يمكن قراءتها قراءة صحيحة الا به ، ولا يمكن للكاتب أن يشكل كتابته الا اذا كان عارفا بالنحو وقواعده ، بينما نجد اللغات الاجنبية اليوم يتقن اربابها القراءة والكتابة على الوجه الصحيح ولو لم يتبحروا فى معرفة اللغة ولم يتقنوا نحوها ، حتى انه يمكن للاجنبى الذى لا يعرف لغة ما من اللغات الراقية أن يتعلم القراءة فى مدة بسيطة ولو كان لا يفهم ما يقرأ ، هذه هى المشكلة مجملة ، وان تفصيلها يحتاج الى وقت لا يتم فى ظروف هذه الفصول .

الطباعة

ومثل ما تقدم يقال فى الطباعة باللغة العربية وفى الآلة الكاتبة وكل اخراج عربى عن طريق الآلة .

وتطرح قضية الطباعة العربية مشكلتين أساسيتين :

(1) أحيل هذا المعهد الى مركز وطنى للتعريب ليشمل نشاطه كل مرافق الدولة فى حقل التعريب .

٤ – كيف يمكن للعربى أن يقرأ ليفهم ، لا أن يفهم ليقرأ .؟

٥ – كيف يمكن ذلك وآلات العالم العيارية لا تحتوى على أكثر من 90 حرفا ، بينما شكل أبسط نص عربى يقتضى 475 حرفا ؟

فما هى طرق التغلب اذن على هذه الصعوبات ؟

لقد حاول الكماليون ان يتغلبوا على ذلك فى اللغة التركية بالغاء الحروف العربية واحلال الحروف اللاتينية محلها ، أليس من الممكن ان نعمل مثلهم فنتخلى عن الكتابة العربية ونعوضها بحروف لاتينية تبدأ من اليسار وتضع الحركات بجانب الحروف ؟ ذلك ما دعا اليه المبشرون والمستشرقون وبعض ذوى النيات الحسنة من العرب الذين لم يتسع أفق تفكيرهم للبحث عن تحسين الكتابة العربية بنفس الروح التى خلق بها أسلافنا هذه الحروف ثم نقطوها ثم شكلوها وسهلوا الى حد ما طريقة استعمالها .

وقد دعا عبد العزيز فهمى الى لاتينية الكتابة العربية جهرا فى أروقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ولكن الاغلبية الساحقة من العرب رفضوا النظر فى هذا الاقتراح مقتنعين بأن تطبيقه سيضيع روح اللغة العربية ويفوت على العرب الاستفادة من تراثهم الضخم الذى تمتلئ به رفوف الخزائن الخاصة والعامة فى كل العالم ، وقد اعترف الاستاذ ماسينيون بأنه كان فكر على اثر ثورة كمال أتاتورك والغائه للحروف العربية فى تركيا أن من المناسب أن يصلح الايرانيون والعرب كتابتهم بطريق الاقتباس من الحروف اللاتينية ولكنه عاد فوجد أن لاتينية حروف الهجاء العربى يهدم أساس النحو العربى الذى هو الاعراب ويضيع على العربية سرها ، لان هذه اللغة السامية الخالصة لغة الشهادة يجب أن يحافظ عليها كما هى لتؤثر على تكوين عام حقيقى للغة العالمية المقبلة ، وترك الهجائية العربية يؤدى الى ضعف الخط العربى الذى هو فى الاسلام المجرد ، والذى يعيش اليوم من بغداد الى المغرب .

وهكذا فلم يعد محل للبحث عن لاتينية العربية وانما أخذ الباحثون يعملون على ايجاد اصلاح للكتابة العربية ، وللطباعة العربية يهمنا منه هنا الاصلاح المغربى الذى عرضه الاستاذ احمد الاخضر والذى كان نتيجة مجهود دام سبعة أعوام ، والذى اعتمدته فيما يظهر وزارة التربية الوطنية ، وان كانت آثاره لم تظهر فى التطبيق بعد . ويقوم على أساس ضمان الحاجة العصرية دون المساس بسنة الكتابة العربية . وطريقة الاخضر هى أن الحروف العربية تنقسم الى ثلاثة عناصر : الحرف ، والصلة ، والالحاق ، وهذا الاخير انحصر فى ثلاثة انواع اى ثلاث مجموعات من الحروف :

الواحد : للباء والتاء والثاء والفاء والقاف والكاف واللام .

والآخر للجيم والحاء والخاء والراء والزاى والميم .

والثالثة للسين والشين والصاد والضاد والنون .

وهكذا نزل عدد الحروف الى تسعين حرفا بما معها من الحركات والعلامات الخطية ، والنقط والارقام والحروف ذات النقط الثلاث (ج ب ف) v p g وهكذا توصل المغرب الى حل مشكلة الكتابة فأصبح القارئ يجد نصوصا مشكولة مضبوطة حتى يتعود على النطق الصحيح للكلم العربية .

وسيمكن حل مشكلة آلة الطباعة ، اذا أمكن صنع آلة تحمل بالعربة ، وانخفض ثمن طابعة اللينوتيب وأصبحت كتابة العربية وقراءتها سهلة التناول ، سواء بالخط او بالطباعة .

ومنذ سنة 1958 ، اشترت وزارة التربية الوطنية من السيد الاخضر حقوق استعمال طريقته ، وستجعلها واجبة فى الكتب المدرسية اولا ، ثم بعد ذلك يمكن ان تصبح اجبارية فى الادارة وغيرها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ◆ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ◆ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ◆ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ◆ إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ◆ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ◆

المصطلحات

أما فيما يخص المصطلحات والنحو فقد أسست وزارة التربية معهدا للنظر فى النهوض بها ، وذلك عن طريق وتجريد التراث العربى لاستخراج الالفاظ العربية التى تعنى بمسائل الحضارة ، وهو عمل جليل وشاق لما يستوجبه من مطالعات وحفريات فى بطون الكتب والمعاجم المبعثرة .

وهذه البداية التى بدأ بها المعهد علمية بكل معنى الكلمة ، لانه يجب قبل كل شيء أن نعرف ما عندنا مما نحن محرومون منه ، ومتى تم الاستقصاء وخرجنا باحصاء شامل ، عرفنا ما ليس موجودا فى العربية من الكلمات الدالة على مدلولات لها فى لغات العجم اسم او أكثر ، وحينئذ ننتقل الى وسيلة سد الفراغ عن الطرق المستعملة عند الاجانب من تعريب ونحت واشتقاق أو رد العامى للاصل أو إتباع ما استعملته العامة مما ليس له أصل .

لقد سبق المغرب الشعوب العربية للعناية بهذا الموضوع وبحثه ، اذ لم يسبق لبلد عربى قبل المغرب أن اهتم بأمر تجريد التراث لاستخلاص عيوبه ، وانما يقع ذلك عرضا فى اثناء البحث للمعانى عن انسحابها والمدلولات على الكلمة الدالة عليها .

وهذا الجانب هو قسم المصطلحات العام ، اى الذى يتناول البحث فى معجم الحياة اليومية وما يعبر به كل فرد وكل شعب عن الاشياء المحتاج اليها من لباس وأثاث منزل وأدوات عمل ومرافق وتعابير جديدة او مدركات عصرية .

وقد لاحظ المعهد ان المغربى يجد فى اللغة الاجنبية ما يرضيه ولا يجد فى لغته ما يلبى رغبته ، وحينئذ يحار بين استعمال اللغة الاجنبية او اللغة العامية مخنطا بينهما . مع ان هنالك فى العربية ميدانا للعثور على الكلمات الصالحة لتأدية أفكاره ، ولكن اللغة جزء لا يتجزأ او كائن حى واحد فان اعتنى به عاش وان ترك ضعف او مات .

ازدواج اللغة

وهذا الوضع الذى يثيره البحث فى معهد المصطلحات والنحو المغربى ، ينتقل بنا الى البحث فيما سماه بعض الباحثين العرب بالازدواج فى اللغة . ويعنى به هذا التعدد الذى أشرنا الى وجوده فى كل بلاد العرب ، وهو اللغة الفصحى واللغة العامية . ولتمييز الاولى عن الثانية طريقة النطق ، ثم طريقة تركيب الجمل ، الى جانب الإختلاف فى المعجم احيانا . وقد اوضح جورج زيدان فضل القرآن الكريم على بقاء وحدة اللغة العربية بين أقطار العرب ، اذ لولاه لاصبح اختلاف اللهجات الاقليمية التى تتطور كلماتها بحسب الاقليم الذى تنشأ فيه اختلافا عميقا فى اللغة مثل الاختلاف الذى أصاب لغات الغرب المشتقة من اللاتينية مثلا .

على أن وجود اللغتين يؤدى حتما الى وجود تفكيرين لأن اللغة هى قوالب الافكار ، فكما أن هنالك لغة عامية يلزم أن يكون هنالك تفكير عامى او شعبى كما يلزم أن يكون بجانب اللغة الفصحى التى هى للخاصة تفكير خاص بطبقة راقية ، وخطورة المسألة فى وقوف التفكير الشعبى عند محاولة الكلام بالفصحى والتفكير بها .

ثم ان العامية فى كل اقليم تؤثر على أساليب الكاتبين بالفصحى ، فيؤثر كل كاتب الكلمات او الاسلوب الذى يوجهه فيه عقله الباطن لانه يتذوق

أكثر من كل كلمة او أسلوب آخر . وهذا مـــا يجعل اخواننا العرب لا يقدرون الترسل المغربي أو الاستعمال المغربي لبعض الكلمات او الجمل ، بينما نجد نحـــن غرابة في بعض أساليب او كلمات الكتـــاب اللبنانيين ونفاضل بينهم وبين الشاميين او المصريين على قدر مـــا يقتربون منا او يبتعدون ، وقد وصل الامر الى حد ان مؤلف الروائع حكم على المغاربة بالعجمة مطلقا لانه لـــم يستطع ان يعلل المغايرة التي في اسلوب ابـــن خلدون لاسلوب السيد الفاضل ، مع أن الفيلسوف المغربـــي يرجع الفضل في توجيه الانشاء العربي هذه الوجهـــة التي تلقفها المحدثون وحسنوها ، ولولاه لبقيت العربية غارقة في طرائف السجع المتكلف والتراكيب الجوفاء التي يصدق عليها تعبير المعرى : أسمع جعجعة ولا أرى طحنـــا .

وقد انصف الاستاذ الزيات في كتابه (دفاع عـــن البلاغة) حين قال وهو يعرض التطـــور الـــذى اصاب العربية : وآثر النابغون مـــن خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفـــوا على آداب الفـــرنجة الطريقـــة الخلدونية على الطريقة الفاضلية لجريانها مـــع الطبـــع وملاءمتها لروح العصر ومشابهتها لاساليب الغـــرب فظهرت مهذبة عذبة فيما كتب قاسم أمين وفتحي زغلول ولطفي السيد ومن جرى مجراهم الخ .

وكما ان للعامية نفوذا على الفكر اللغوي العربي فلها نفوذ على النطق ايضا حيث نجد اخـــواننا المصريين ينطقون الجيم جيما معقودة بينما صحراء المغرب وصعيد مصر ينطق القاف معقودة . واذا كانت هذه تتفق مـــع استعمال بعض العرب الذين قال شاعرهم :

حج الحجيج وناقتي معقولة يارب يامولاي فك عقالها

فان الجيم المعقودة عامية محض ، كما أن من العامية نطق القاف آفا وعدم التفرقة بين الشين والسين ، او الجيم والزاى .

ومن الملاحظ أن هذه العثرات في العامية تتطـــور وتنتقل من حرف الى آخر .

فقد كان المعروف في فاس هـــو الخلط بين السين والشين ، ولكن هذه الآفة ذهبت لتحل محلها آفة أقبح منها وهي نطق الهمزة قافا فيقـــال القمير عوضا عـــن الأمير والقرقان عوضا عن القرآن .

فاذا أضيف الى هذا الاختلاف الموجود في الكتـــابة وفي الارقام وفي الشهور الاعجمية مـــا بـــين المشرق العربي والمغرب العربي عرفت أضرار الازدواج على وحدة اللغة وما تحدثه من اقليمية في الفكر وفي الاتجاه .

فما هي الوسيلة اذن لتكوين نغـــة عربية موحـــدة وسليمـــة ؟

لقد كانت المدارس الفرنسية في الشرق في مقدمة من حمل الدعوة للاستغناء عن العربية الفصحى وكتابتها والاستعاضة عنها بالعامية وبالحروف اللاتينية ، وقد سبق أن نقلنا تراجع المسيو ماسينيون عن هذه الفكرة مع انه حمل رايتها زمنا ، ومن جملـــة المحاولات التي خرجت من المدارس الفرنسية في لبنان ، الكتاب الذى نشرته المطبعة اليسوعية وألفه الأب رفائل نخله باللغة الفرنسية مع كتابة النصوص العربية بالحروف اللاتينية وغايته وضع قواعد ثابتة للهجة العامية في لبنان .

وكذلك الكتاب الذي أخرجته المطبعة اليسوعية أيضا من تأليف الاب لاى اليسوعي وسماه التحفة العامية في قصة فنيانوس وهي رواية باللغة العامية وتمثل ناحية هامة من حياة اللبنانيين (1)

ولقد أثار هنرى بيريس وضع الادب الشعبي العربي ودعا ايضا الى الاستعاضة بالعامية عن الفصحى وكـــان الدكتور هيكل في مقدمة الذين تأثروا أول عهده بهـــذه الدعوة فدعا الى كتابة القصص والتمثيليات باللغة العامية ومن سوء الحظ أن قلـــة تشجيع الحكومات للتمثيـــل والسينما وعدم الاهتمام بتوجيههما الوجهـــة الصحيحة حمل القائمين عليهما أن ينزلـــوا الى مستوى الرجـــل العادى فيكتبوا له بالعامية ويستعملوا كل ما يمكن من تملق للغرائز وللاهواء . حتى أدى الامـــر الى اعتقاد الكثيرين من اخواننا العرب بأن الشعب لا يفهم الفصحى او لا يتذوق مغازيها او انها هي غير صالحة للاعراب عن النكتة المقبولة والفكرة الشعبية المطلوبة . والـــواقع أن القضية قضية اتقان وابداع في الفن ، فقد شاهدنا عدة

---

(1) كتاب التبشير والاستعمار ص 221 تأليـــف مصطفى الخالدى وعمر فروخ .

روايات مما كتبه رجال الطليعة كنجيب حداد ومطران وزيدان ومصطفى كامل وعبد الله نديم باللغة الفصحى تمثل فى بلادنا وفى الشرق فيقبل عليها جمهورنا أكثر مما يقبل اليوم على القصص العامية على الرغم مما فى هذه من تهريج وتملق للغرائز .

وقد دعا الاب نخلة اللبنانى الى ما اختار تسميته بالادب الشفوى اى غير المكتوب ويعنى به أدب العامية . وعوضا عن ان ينبه الى مجرد الاهتمام باستخلاص الروح الشعبية من أمثال العامية واغانيها ونكاتها التلقائية فقد أحب ان يسميه أدبا مع أن الادب لا تكفى فيه التلقائية بل لا بد من الفكر والمعرفة وهو ما يخرج عن نطاق العامة والعامية .

ويلاحظ فانسان مونطى ، ان المناقشة بين أنصار العامية والفصحى قد انبعثت من جديد على اثر مجهود الديموقراطيات الشعبية لرفع مستوى الفولكلور وما أحدثه من تاثير على شاطىء النيل اذ أصبح من بين الكتاب اليساريين انصار الادب العامى ويقول مونطى : ان للمسلمين فى روسيا اليوم 17 لغة (وطنية) ليست فى الحقيقة الا تجسيما كتابيا للهجات المتكلم بها ، وقد الغيت اللغة العربية من الداغستان مع انها كانت لغته الثقافية حتى سنة 1914 ، وقد أراد ستالين حسب تعبيره الشهير فى 18 ماى 1925 تاسيس ثقافة ذات شكل وطنى على أن تكون ذات محتوى اشتراكى . (1)

وقد بحث أخيرا سلطانوف مسألة تكييف اللغة القومية فى البلاد العربية ولا سيما فى مصر سنة 1955 فدعا الى استعمال العامية فى كل ميدان لم تدخله بعد (المقال والخطابة السياسية والمآسى) (2)

ودعوة سلطانوف هذه ، أخطر من الدعوات السابقة لانها لا تريد رفع مستوى العامية للاحتفاظ بما فيها من معان شعبية ، ولكن يراد بها فصل الجمهور عن الفصحى ومحتواها واعطاء العامية محتوى خاصا وجديدا . وهو أشبه بالاصلاح الذى قام به الامام الجزولى فى المغرب لادخال التصوف والطرقية فى صميم الشعب فى عصره وهو ما يقوم به فريق من المبشرين المسيحيين فى الكونغو والجابون ، حيث يقيمون حفلات شعبية باللهجات المحلية الغاية منها نشر الروح الكاثوليكية فى عادات وحياة السود .

على أن هذه الدعوة لم تجد قبولا من الشيوعيين أنفسهم فقد احتج الصينيون ضدا عليها بالصيغة الآتية : (ان حجج الذين يدعون لاستعمال اللهجات هى ما ياتى : حيث اننا نكتب حوادث لفئة ما ، ويستعمل الناس فيها نوعا من القول ، فيلزم من ذلك أن لن تكون له قوة التعبير الا اذا كتبت وامكنها الاعراب عن الاحساس بالحقيقة ، وقد كتب لاوشو أمن المجاز ؟ ان أحدا لا يفهم ، واذا لم يفهمه أحد فهل يمكن الحديث عن المجاز . ان الاختيار او العبث بأخذ العامى يحكم بالنقص من قيمته لانه يلزم العرب أن يخلقوا أدبا جهويا » (3)

ويقول مؤلفا كتاب (التبشير والاستعمار) (4) ما يلى :

« وبعد أن قامت فكرة (الكتابة فى العامية بالحرف اللاتينى ، رجعت من جديد وتحت ستار «تسهيل اللغة» الى الاستيقاظ ، وآخر ما ظهر فى هذا الباب (تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقى جديد) تأليف الدكتور أنيس فريحة» ولكن يبدو أن الدكتور أنيس فريحة يريد أمرا آخر . يريد أن يجعل من اللغة العربية الفصحى والحرف العربى مشكلتين يستحيل حلهما ، ولذلك هو يرى أن ينتقل العرب الى الكتابة العامية بالحرف اللاتينى ، انه يبسط رأيه هذا على منحنى كبير وشىء من التهكم كان يجب أن يترفع عنه من يدعو الى أساس منطقى جديد : انه يقول :

« يطالب مثلا بعض متبنى الحرف اللاتينى تسهيلا للقراءة وتخفيضا لنفقات الطباعة . ونحن من المومنين بهذه النظرية ، ولا نرى حلا للكتابة الا بتبنى الحرف اللاتينى وضبط الكلمات فيه مرة واحدة ... واما الذين لا يرون مشكلة فى الامر ، وهم من لم يمارسوا التعليم فيقولون : هؤلاء جماعة خارجون على العروبة وعلى الاسلام . ويطالب بعض الناس بتيسير قواعد العربية لتقرب من العامية أو لرفع العامية لتقرب من الفصحى فيتساءل البعض الآخر وهل العربية معقدة لنبسطها او

---

(1) مونطى ، كتابه عن مسلمى روسيا ص 83

(1) مونطى «العربية العصرية» ص 79

(2) مونطى ، العربية العصرية ص 78

(2) التبشير والاستعمار ص 223

سهلة لنيسرها ؟ انما انتم جماعة خارجون على العروبة وعلى الاسلام .

« ولما ذا يثور الناس كلما طالبنا بالتيسير ؟ لما ذا يتهموننا بالخروج ؟ الامر بسيط لا يدركون ان هنالك مشكلة ، ولما ذا لا يدركون : الامـــر بسيط الجهـل ، الجهل عدو العرب الاكبر» .

وعقب خالدى وفروخ على كلام فريحة ان الدعوة الى العامية والى الحرف اللاتينى معناها :

1 – خلق مشكلة لا حل مشكلة .
2 – قطع حاضر العرب ومستقبلهم بماضيهم .
3 – تنفيذ لمآرب تبشيرية استعمارية لأن الامر بدأ بذلك ، ولا يمكن أن يكون سبب هذه الدعوة الآن غير سببها بالأمس .

4 – ان كثيرا من كتاب الدكتور فريحة لا صلة له بتبسيط العربية على الاطلاق ، كجدول ضمائر الاشارة مثلا ، ان الدكتور فريحة يقترح لاسماء الاشارة (ص 33 – 34) عددا أكبر من العدد الذى تثبته كتب النحـــو المدرسية . ان الدكتور فريحة يريد أن يبرز أشكـــالا كثيرة لضمائر الاشارة كمـا يسميها هـو لكى يحسم مشاكل اللغة العربية الفصحى ومشاكل الكتابة بالحرف العربى توصلا الى الدفاع عن رأيه فى اتخاذ العامية لغة كتابة واحلال الحرف اللاتينى محل الحـرف العربى فى الكتابة العربية . (2)

ومن الذين ردوا على هذه الدعاية التبشيرية طـه حسين فقال :

« أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالاتجاه الى اللهجات العامية الى شىء خطير ما أرى انهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير ، وهو أن العـــالم العربى الآن وكثيرا من أهل العالم الشرقى كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عـن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح اللغوى بين أقطـاره المتباعدة ، فلنحـذر ان نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمضى كـل قطر فى لهجته ، وتمضى هذه اللهجات فى التبـاعد والتبادر ، ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى الى أن يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ويحتاج أهـــل سورية ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم ، كمـا يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكمـا يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل انفسنا آخر الامر ايهما خير أن تكون للعالم العربى كلمة واحدة وهى اللغة الفصحى يفهمها أهـــل مراكش كما يفهمها أهل العراق ، أم تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التى تأتلف منها ، وان يترجم بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الاوربيين عن بعض ، أما أنا فأوثر وحدة اللغة . وأنا الثقة كلها بأن لها النصر آخر الامر وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد فى سبيلها المومنون بها وبأن يضحوا فى سبيلها بكل ما يملكون » . (3)

ولنسأل انفسنا نحن مع طه ، لو لم يكن انتاج العرب فى المشرق فى الحقبة الاخيرة حيث كنـــا لا نزال تحت ضغط الاستعمار الذى يمنعنا من كل حرية فى النشر وفى الحركة ، ما ذا كان سيصبح عليه مصير اتجاهنا ؟ ماذا سيصير لو تركنا الثقافة الاسبانية أو الفرنسيـــة وحـدها ؟

واذن فالمعركة قائمة مع الذين يشايعون المستعمرين فى الدعوة الى التخلى عن الفصحـى واستعمال اللغـــة الاقليمية العامية ، واذا كان سببها الاصيل هو ما يرمى اليه المستعمر من تفرقة وفصل بين العرب وبين تراثهم فان الذين انتحلوا رأيه من العرب لم يأخذوه عن خيانة أو رغبة فى خدمة الاجنبى ، كلا بل هنالك أسباب أخرى فى مقدمتها الحتمية التى جعلتهـــم ييأسون من لغتهم ويعتقدون أنه لا سبيل الى التقدم الا عن طريق اطراحها وخلق لغة جديدة لا نسب لها ، ثم التقليد الاعمى لكل ما وقع عليه التطور فى الغرب ، فهنالك اللاتينية التى كانت لغة المجموعة الاوربية الغربية بما فيها انكلترا قد

(1) تبسيط قواعد العربية ص 77 .
(2) التبشير والاستعمار ص 224 .
(3) طه حسين مجلة الحصاد عدد 1 ص 26 .

أصبحت مصدرا تاريخيا للغات الحية الراقية فى الغرب كالفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية، بينما لم تكن هذه الا وحدات من لهجات وجدها العرب يوم فتحوا اسبانيا وبلاد الغال، وقد تغلبت في فرنسا مثلا لغة جزيرة فرنسا وهى المنطقة التى فيها باريز.

ولكنهم حين يقارنون بين العرب وبين اوربا فى عهدها اللاتينى، وبين عهد هذا اليوم والعهد الذى يريدونه لبلادنا غدا، انهم حين يفعلون ذلك لا يتعمقون فى دراسة الواقع فى بلاد اوربة نفسها. فهل استطاعت قومية اللغة او اللغة القومية الخاصة ان تمنع من قيام لهجات اقليمية تفرض عليها اللغة الوطنية فرضا بحكم مراد الدستور؟ هذه واحدة والثانية هل سلمت اللغة الوطنية نفسها فى كل البلاد من وجود عامية تقل او تكثر الفوارق بينها وبين الوطنية اى الفصحى بحسب البلاد والمجتمعات، وهذه ثانية واما الثالثة فهى هل استغنت اوربا فى مرحلتها الحاضرة عن لغة موحدة بين دولها؟ وهل لم تشعر اليوم بخسارة التجربة التى قامت بها فى عهود الوطنية الضيقة.؟

فاذا نظرنا الى فرنسا نجد ان بها عدة لغات اقليمية لم يستطع اختيار اللغة الوطنية أن يقضى عليها، فثم لغة الباسك التى يتكلم بها قبائل الواسكون القاطنون فى البلاد من أقدم العصور وهم الذين سموا اسبانيا بفسكونية. وهذه القبائل يقطن عشرات الآلاف منها فرنسا ونحو المليون ما يزال فى شمال اسبانيا، وهناك اللغة البروفنسالية وبها عدة لهجات (باتو) وهى لسان سكان القرى في العمالات الجنوبية وفي ضواحى مرسيليا، واللغة البروطانية وهى بقية من لغة السلت ويتكلم بها أزيد من مليونى فرنسى غربى فرنسا. وثمة لغة الفلامند ويتكلم بها مئات الآلاف من سكان الشمال، ومثل ذلك يقال عن اسبانيا والبرتغال وجل اقطار العالم. ويصل الفرق فى هذه البلاد الى حد أن سكان القرى البعيدة لا تستطيع ان تفهم اللغة الوطنية التى يتكلم بها الباريسيون وعامة الفرنسيين الا بحكم الدراسة والتعليم. اذ اللغة الأم بالنسبة اليهم هى اللغة المحلية التى تخاطبهم بها أمهاتهم ويسمعونها فى حياتهم الخاصة. وحينما وقع تدوين اللغة الوطنية اقتصر عليها كلغة رسمية ولم يسمح لواحدة من اللهجات الاخرى بالتدوين ولا اذن للاقاليم حتى باصدار جريدة بلغتهم الخاصة. بل انهم محوا ما كان مكتوبا بلغة الباسك تعصبا منهم للغة القومية ومحافظة على كيانها.

واللغة الفرنسية نفسها على الرغم من كونها أصبحت قومية ورسمية فى كل فرنسا لم تسلم من وجود الفرق بين لغة الكلام الذى يتحدث به عامة الشعب وبين لغة الادب والكتابة، وذلك مظهر عام لكل اللغات تقريبا. وقد بين بلومفيولد ان لكل لغة ثلاث مستويات عال ومتوسط وشعبى. (1)

ويقول كمال الحاج (2): «ومن هنا تنبه الكثيرون من علماء اللغة المتبصرين فى أمور الفلسفة أيضا الى هذه الازدواجية فى نفس الانسان. الامر الذى يحتم على كل لغة بشرية ثنائية العامية والفصحى، لا شك فى أن هذه الثنائية على درجات ولكنها كائنة فى لغات البشر كلهم، لذا يقول مندريس ما يلى:

ينحصر الفرق الاساسى بين اللغة العاطفية واللغة المنطقية. فى تكوين الجملة، هذا الفرق يبين تماما عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المحكية هاتان اللغتان المكتوبة والمحكية، تبتعدان فى الفرنسية احداهما عن الاخرى، الى حد ان الفرنسيين لا يتكلمون اطلاقا كما يكتبون. ولا يكتبون كما يتكلمون، الا نادرا لكل حالة اختلاف في ترتيب الكلمات الى جانب اختلاف المفردات، ان الترتيب المنطقى الذى تسلك فيه كلمات الجملة المكتوبة يتعطل دائما فى الجملة المحكية قليلا أو كثيرا، فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجمل:

Il faut venir vite. quant à moi je n'es pas le temps de penser à cette affaire.
Cette mère déteste son enfant.

تتخذ هذه الجمل معظم الاحايين – فى اللغة المحكية صيغة مختلفة كل الاختلاف فيقال:

Venez vite. Du temps. voyons est-ce que j'en ai, moi. pour penser à cette affaire-là. Son enfant ! mais elle le déteste. cette mère (1)

وينقل جوستاف لوبون من كلام بركهارد ما يلى: «وتجد اختلافا كبيرا. لا ريب فى لهجات اللغة

(1) مونيطى، العربية العصرية ص 82. (2) كمال الحاج، فلسفة اللغة ص 238.

العربية العامية اكثر مما في اية لغة أخرى على مايحتمل، ولكن لا يصعب عليك ان تفهمها جميعها اذا ما تعلمت احداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلوها بها وهى الواقعة بين مدينة الصويرة ومدينة مسقط . وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثير في اختلاف تلك اللهجات التى هى عذبة فى أودية مصر والعراق الدنيا ، وجافة فى بلاد البربر وسورية واعظم فرق كما أعلم ، هو ما بين لهجة المغاربة فى مراكش ولهجة الاعراب فى مكة والحجاز . ولكن هذا الفرق بين تينك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحى سوابيا (جنوب المانيا) عن لهجة فلاحى سكسونية (شمال المانيا) . (2)

وقد بين فيراميل ان اللغة الباريسية تقترب فيها لغة القول من لغة الكتابة الى حد لا يمكن معه ادعاء الازدواج مثل ما هو فى اللغات الاخرى .

واذن فليس من الضرورى أن يكون هنالك ازدواج بكل معنى الكلمة ، كما ان وجوده لا يستدعى اهمال اللغة الفصحى واحلال العامية محلها ، لان هذه لو حلت محلها لاستدعت فى الغالب تكوين لغة عامية فصحى وأخرى عامية .

على أننا اذا نظرنا فى الاغانى الشعبية وخاصة فى الزجل نجد نوع افتراق بين لغة النظم وبين الكلام العادى الذى يتخاطب به الناس ، الامر الذى يبين أن العقل متى تدخل فى القول جدده ورصفه وخرج به عن لغة الكلام المعتاد .

وفيما يخص المسألة الثالثة ، نجد اوربا الان بعد أن قطعت مرحلة الوطنية الضيقة تشعر بحاجة الى اعادة الوحدة الاوربية لما كانت عليه فى الماضى ، وهى تبحث فيما تبحث مسألة تكوين لغة موحدة يتعلمها الابناء الاوربيون بجانب لغتهم القومية حتى يمكن التخاطب بها بين أبناء أوربا جميعا ، وذلك ما قام به الروسيون فى الاتحاد السوفياتى حيث جعلوا لغتهم الموحدة لمختلف القوميات السوفياتية . ولو انهم كانوا احتفظوا باللاتينية كما كانت عليه قبل عهد القوميات لوجدوها الان سببا فى نجاح وحدتهم وعاملا قويا فى اثبات كيانهم .

ولقد حاول بعض الاجتماعيين ومن بينهم هانوتو أن يؤكدوا عدم حاجة المجموعة البشرية الى لغة واحدة لكى تتحد ، معطيا الاتحاد السويسرى كدليل على ذلك . واذا كان هذا صحيحا من الناحية القانونية ، فان المعنويات تظل مفككة . والاتحاد السويسرى لو أنه أصيب بأزمة خارجة عنه ، وزالت عنه الحماية الدولية التى تقضى بها المحافظة على التوازن بين دول الغرب الكبرى ، لو وقع ذلك وعملت كل دولة مجاورة لاحدى الوحدات السويسرية على جرها اليها لما وجدت صعوبة فى أن تندمج تلك الوحدة مع البلاد التى ترتبط واياها برباط اللغة والدين . ولقد وقعت على اثر مأساة الكونغو رجة فى بلجيكا عرضت وحدتها للافتراق ، اذ تكونت فى كل من والونى والفلامنك حركة محلية هددت بتكوين حكم ذاتى خاص .

فاللغة اذن شيء ضرورى كعامل ربط وتوحيد بين العناصر التى تتكون منها الامة أو الامم التى يتكون منها الاتحاد ، وذلك ما عناه جوليان باندا فى مقاله عن الروح الاوربية اذ يقول :

اذا كنا نعمل على أن نزود الغرب بوحدة روحية ، علينا أن نجند الحملات فى سبيل انشاء لغة غربية ، اعنى لغة تضاف الى لغات مختلف القوميات الغربية ، بدون ان تحدث التخريب فى هذه اللغات . يكون مثلها مثل الفرنسية التى أضيفت الى البيكاردية والبروفنسالية ... ومثل الانكليزية التى أضيفت الى الغالية والايكوسية ، هذه اللغة يتلقنها الاولاد جنبا الى جنب مع لغة بلادهم . مثلهم مثل اولاد عائلات مثقفات كثيرة فى الغرب ، يتعلمون الافرنسية لمدة طويلة بالاضافة الى لغتهم القومية . (1) وهكذا نرى أن اوربة التى يريد القوم أن يقتفوا اثر افتراقها ويطالبوا بأن تكون العربية لاتينية والعامية لغة كل اقليم من أقاليمهم ، رجعت الى نفسها تبحث عن وسيلة تنقذها من الفرقة وتجمع شملها فلم يتم لها ذلك بغير البحث عن لغة

---

(1) فاندريز - اللسان ص 171.

(2) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ترجمة زعيتر ص 532 . ونقل ذلك كله الحاج ص 239 من فلسفة اللغة ،

الربط التي تصل بين وحداتها وتكـون هي غايتها . لا ادري كيف يفكر بعض العرب بعد ما شاهدوا هـذه التجارب الاجنبية بالتخلي عن الفصحى وتكوين اللغـة الاقليمية الخاصة ؟ مع أن المجهود الذي نبذله لتعميم الفصحى وتوحيد التعليم بها أقل بكثير مما يتطلبه خلق لغة جديدة من ألفها الى يائها ، ان كل ما يتطلبه منـا الحال ، هو اصلاح في الاساليب وعدم شغل أطفـالنا باللغة الاجنبية قبل أن يكتمل وعيهم بلغة الام .

ثنـائية اللغـة

وهذا ما يدور بنا عودا على بدء . للحديث عن ثنائية اللغة ، أو على التحقيق عن العناية التي نوليها في كـل مراحل تعليمنا للغة الاجنبية . ولست في حـاجة الى تكرير ما قلته في صدر هـذه المحاضرة مـن ضرورة احتكار الوقت في التعليم الابتدائي للغـة العربية ، واعطاء القسط المعقول للغة او اكثر من اللغات الاجنبية في التعليم الثانوي او العالي ، مثلما هو الواقع في جميع البلدان الاجنبية . وان من يتجول في الدول الراقية مثل انكلترا او امريكا وروسيا واسبانيا يشعر تماما بأن الاغلبية الساحقة في هذه الامم لا تفكر في اتقان غـير اللغة الام ولا تشغل نفسها بغيرها ، بل انهـا جميعا تفرض عليك أنت الذي تقدم لبلادها أن تخاطبها بلغتها، أما نحن فاننا بعكس ذلك نعتبر ضعفا في ثقافتنا وفي وجودنا أن لا نعرف لغة المحتلين لنا . لقد عمل الاجنبي لذلك مدة طويلة اذ كان يقصر كل الوظائف على مـن يتقن هذه اللغة . أما اليوم فمن الخذلان أن نظل حيث وضعنا الاجنبي .

لقد لاحظ أحد خبراء التعليم اللبناني السيد قيصر نصر ان ثنائية اللغة تكون عند الطفل انحطاطا نفسيا. ويقول مونطي : الواقع ان المجهود الذي يطلبه اللسان الثاني ينقص جدا من استعداد الطفل العقلي الذي كان يجب أن يقصر على دراسة اللسان الاول . ويقول لوزيه أحد علماء النفس الفرنسيين (ان نمـو الطفـل العقلي لا يتضاعف ، ولكن ينزل الى النصف ، وبما أنـه غير قادر على التفرقة بين اللغتين ، يحفظ الاثنـين دون أن يتملى بعبقرية لغته الخاصة .

ولكن التجربة الاستعمارية أكثر من ذلـك ، اذ انها أدت الى انحطاط العربية والاكتفـاء باللسان الاجنبي حتى وجد مثل الشرايبي الذي كـان يطالب بمخاطبة الشعب بالفرنسية في المغرب وعديد مـن اللبنانيين الذين آثروا الكتابة بالفرنسية او الانكليزية غير عابئين بمن يتقدمهم من أبناء وطنهم . ومثل محمد عكون الذي يطالب في اثناء الكفاح القومي في الجزائر بثلاثية لغوية في الشمال الافريقي ، العربيـة والفرنسية واللاتينية ويأسى لتاريخنا الثقافي بزعمه . (2)

فتقهقر اللغة العربية ازاء لغة المستعمرين شيء طبيعي ما دام كل وجوه النشاط الانساني مقصورا على اللغـة الاجنبية وما دامت العربية تعـامل معاملة الايتام في مأدبة اللئام ، وذلك ما اعترف به وليام مرسي في هذه الفقرة التي نقلها عنه مونطي في كتاب العربية العصرية. والتي يعبر بها عما يشعر به من حال المغرب العربي : انه ليس عمليا ولا منطقيا وقليلا ما يقع ، أن يبقى لسانا تعبير عن حضارة متعايشين وقتا طويلا في بلد واحد ، فاذا كان المتزاحمان يملكان حرمة واحدة ويعبران عـن شيء واحد بصفة محسوسة ، ويعرب عنه جيدا الواحد والآخر ، فقد تساعد أسباب عاطفية على اطالة تضييـع هذه القوى . أما اذا كانت احدى اللغتين لسان الحاكمين، وهو الذي يفتح الباب للدخول الى حظيرة حضارة عصرية كبرى ، فمن الواضح أن تقترب التعبيرات المكتوبة مع التعبيرات المحكية للفكر الى أقصى ما يمكن، بينما يبقى الآخر لغة المحكومين يعبر في وسط كتابة عن مثالية من العصور الوسطى، ويختلف حين يكتب عنه حين يعبر. فان وضع اللغتين يصبح حينئذ غـير متساو . فيستطيع الاول ان يرجع الثاني القهقرى) ويبنى على ذلك « جان ليسرف » ان تقهقر العربية ازاء لغة أو أكثر من اللغات الاجنبية يعني تقهقر الفكرة الوطنية . وفكرة الوطـن العربي تمثل بـدون شك فكـرة القـوة بـل أقـول فكرة شديدة ، ويترتب على ذلك أيضا تقهقر بالنسبـة الى التقـدم العصري للجماعة ، فيكون ذلـك حـلا ارستوقراطيا بكل معنى الكلمة لان اللغات الاجنبية من

---

(1) تعريب كمال الحاج .

(2) أنظر جريدة العمل التونسي بالفرنسية الصادرة في 6 يناير 1958 .

المستفخرات (لوكس) التى لا يستطيع الجمهور أن يؤدى ثمنها ، (3)

تلك شهادات قيمة من شخصيات فرنسية ذات تجربة استعمارية خطيرة .

أما تجربتنا نحن فهى أخطر من هذا . انها ضعف فى المقدرة القومية على الانتاج مطلقا . ان من ينظر الى حالة الثقافة فى المغرب العربى يشعر بمقدار النقص الذى يعانيه حملة الشهادات العليا فى وطننا . فاذا استثنينا قلة يسيرة من الذين يكتبون ويؤلفون بالفرنسية او الاسبانية وعددهم فى تونس والجزائر والمغرب يعد على الاصابع ، وانتاجهم لا يتجاوز طور المحاولات التى يشجعها الاستعمار ويفخر بها ، اذا استثنينا اولئك ما ذا نجد ؟ فراغا كاملا فى الانتاج ، مع أن عدد المثقفين الحاملين للشهادات العالية من أرقى الجامعات فى فرنسا وغيرها يعد بالآلاف ، فلو قارناهم بمثل عددهم من أبناء فرنسا ، لوجدنا الآخرين اكثر انتاجا وأقوى تفوقا فى ميادين العمل والتنظيم . ولو قارناهم بمن هم مثلهم فى درجة الشهادات من اخواننا فى مصر مثلا ولكنهم درسوا فى الابتدائى والثانوى على الاقل باللغة العربية لوجدنا هؤلاء ينتجون اكثر من الأولين . هذه حقيقة مرة نلمسها فى مجتمعنا ، ولا يمكن أن نعللها بعلة غير كون الانسان لا يستطيع أن يملك زمام اللغة الاجنبية الى الدرجة التى تملك عليه أفكاره وقلبه وحتى عقله الباطن . وهو يعيش فى بيئة أخرى غير بيئة تلك اللغة ويحلم بآمال وأمثلة عليا غير التى تقدمها له تلك اللغة .

ان اللغة ليست وسيلة من وسائل التعبير ، ولكنها غاية .

لأن الكلمة ، هى مصدر الالهام ، وهى اذا لم تخرج ممتزجة بالروح التى تصنعها فلن تكون الا كلمة لا محتوى لها وصدى لطبل أجوف يرن فى الفضاء ثم يغيب فى العدم المحض الذى ليس له ثبات .

واللغة الاجنبية تأخذ الانسان ، ولكنها لا تستطيع أن تعطيه نفسها فهو يظل مأسورا بيد من لا يرغب فيه ولا يمتزج بوجوده . انه يظل فى عالم المقعدين الذين يأنسون من نفسهم القوة على النهوض فلا تعينهم الآلة . لا يجدون الآلة التى هى لغتهم الاصلية ، ولا تقوم الآلة العوض الا بما تقوم الارجل الصناعية فى النهوض بذات المشلول .

اننا سنظل بدون ثقافة ما دمنا لا نتعلم ونتثقف باللغة الام .

ومع العربية سنصبح المثقفين المنتجين كما كان أجدادنا الاولون .

لقد وسعت العربية كل هذه الكتب التى تمتلىء بها خزائن الشرق والغرب ولقد كان المغاربة فى مقدمة المؤلفين والكاتبين ، يوم لم تكن لغة درس وعلم غير لغة الضاد .

أما اليوم فاننا ذلك المجتمع غير المنتج ، لاننا مستعجمون وعواطفنا عربية .

العلاج

ونعود الى السؤال ما هو العلاج اذن ؟

لا شك أنه قبل كل شىء فى المحافظة على الفصحى ، ولكن ما هى الفصحى عند التدقيق ؟ يقول البعض ان الفصاحة لا تعنى الكلمة واصلها وتطورات استعمالها ، وانما تعنى الجملة وموقعها من الاعراب اى حال أواخر الكلم . يقول كمال الحاج :

« وعلى ضوء هذا التعريب للفصحى المبنى على النحو ... أى الاعراب ... تصبح كل كلمة قابلة لان تصير فصيحة بشرط ان تدخل فى جملة مفيدة ، هى عامية اذا استعملت فى ترتيب يقوم على الكلمة ، وهى فصيحة اذا استعملت فى ترتيب يقوم على الجملة وارتبطت بسابقات لها ولاحقات بحيث تنشأ الوحدة الاعرابية او النحوية .. ان كلمة «صاج» فى خاص مبناها ليست عامية ولا فصحى ، هى عامية فى «الصاج عالنار» وهى فصحى فى «الصاج على النار» (4) ويقول بعد ذلك : لنفرض أن هذه المقاييس النحوية قد الغيت من لغة العرب أتستطيع أن تتصور ممكنا بعد ذلك حدوث فهم للكلمات ؟ اللغة ليست حروفا بمعزل عن الالفاظ ولا الفاظا بمعزل عن الجمل ، ولا جملا بمعزل عن البيان . اللغة هى كل هذا دفعة .. فاذا قضينا على الروابط وعلى العوامل أى على المقاييس النحوية .. ما ذا سيبقى من

(3) مونطى ، العربية العصرية ص 87 .

(4) كمال الحاج ، فلسفة اللغة ص 236 .

اللغة ؟ لا شيء ، ندور اذ ذاك في ظلام بهيم . يقول الامام عبد القادر الجرجاني بصدد النحو ما يلي :
ان الالفاظ مغلقة على معانيها ، حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وان الاغراض كامنة فيها ، حتى يكون هو المستخرج لها . وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه . حتى يعرض ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم ، حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، والا من غالط في الحقائق نفسه . واذا كان الامر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به، وزهد فيه ، ولم ير ان يستسقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ؟ (1)

وعلى هذا فالنحو وحده هو اللغة ، أما الكلمات فشيء ثانوي ، يمكن أن تكون عرفية من حيثما كانت اذا وضعت في جملة نحوية سليمة . اننا لا نوافق على هذا الادعاء ، لاننا لو أخذنا أية كلمة عامية ووضعناها في وسط الجملة العربية دون أن تتوفر لديها صيغتها العربية ، اى دون أن تكون أصيلة او مندرجة تحت أصل من أصول التعريب التي لا بد من مراعاتها في اقتباس الكلمات وانتحالها ، لن تكون الجملة نفسها التي فيها هذه الكلمة عربية ولو كان فيها نحو واعراب .

لقد أخذ بعض الظرفاء من أصحابنا نفسه بالاستهزاء ببعض الذين لا يبالون بالكلمات الصحيحة في إستعمالهم من غيرها ونظم بيتا غزليا قال فيه :

«زدمتم» على قلبي (بسباط) هجركم
فكاد من «الفقصا» أن «يتطرطق»

فهل ستصبح «زدمتم» العامية فصحى بمجرد اعرابها والنطق بها (زدمتم) ؟ وكذلك «السباط» ما دام لم يقبل من اول الامر في اللغة . وكلمة «الفقصى» أى الحزن ، والتطرطق ، اى الانفلاق هل تدخل هي نفسها بمجرد هذا التركيب في المعجم العربي ؟ الواقع ان الكلمة هي الاصل في اللغة في البدء كانت الكلمة ومنها جاءت الجملة ، ووقع الاصلاح ليبقى الكلام على وتيرة واحدة ، فكان النحو .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان في لغات العرب القديمة من لا يعرب ومن يختلف في تراكيبه وقواعده عن اللغة المضرية التي قدر لها البقاء وقد امتازت اللغة الحميرية بعدة فوارق منها عدم التزام الاعراب دائما، وقد حفظ لنا هذا المركب الحميري : (ليس منأمبر أمصيام في أمسفر) أي (ليس من البر الصيام في السفر) ومع ذلك اعتبرت الحميرية من اللهجات العربية الفصحى وان لم تكن من المضرية . وليس من السهل معرفة كامل الفوارق التي بين الحميرية والمضرية وفي ذلك يقول ابن خلدون في المقدمة : (ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد – وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد – وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته وتشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع مضر ، الا ان العناية بلسان مضر من أجل الشريعة اى القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء ، ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها . ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر » ه

فهل كان ابن خلدون يريد الاستعاضة عن الفصحى بالعامية ؟ كلا ؛ وانما كان يريد العناية بالعامية واستقراء حالها فربما يكتشف فيها من قواعد العربية ما لا يفرض الاعراب على طريقة مضر ، وما يتفق مع اللهجات العربية الاخرى . وطبعا فان ابن خلدون لايقبل هذا الا وهو يعطي الاهمية الاولى للكلمات العربية

---

(1) الجرجاني ، دلائل الاعجاز ص 26 ، القاهرة 1331 ه .

الصحيحة ، التى يجب النطق بها كما كان العرب الاولون ينطقون ، ولا باس من التسامح فى الوقف على أواخر الكلمة ، أو الإبقاء على ما يتفق مع استعمال بعض القبائل العربية فى أيام السليقة الاولى ، فبنو تميم كانوا ينطقون بحرف المضارعة الاول للمتكلم مكسورا فيقولون فى نجتنى ، مضارع اجتنى ، نجتنى بكسر النون الاولى ولن يغير فى فصاحة متكلم بالفصحى أن يتبع طريقة من مثل هذه الطرق العربية .

والامر كما قال الشيخ عبد القادر المغربى : ان احياء اللغة الفصحى بيننا لا يمكن حصوله بمراعاة قواعد النحو فقط ولا بالتزام حركات الاعراب فى أواخر الكلمات التى نتكلم بها فى كلامنا الدارج ، فان هذا ليس بالميسور ولا المستطاع للجمهور وانما المستطاع هو تطهير كلامنا من الكلمات العامية المبتذلة واستعمال كلمات فصيحة مكانها . فان هذا هو المستطاع وكذلك من المستطاع لنا أن ننطق بالكلمات الفصيحة على الشكل الذى كان ينطق به الفصحاء اى دون تحريف او تحويل فى حركات الكلمة وسكناتها وتشديدها والخروج بها من قواعد الصرف وقوانين اللغة . (I)

والحل اذن هو فى المحافظة على اللغة الفصحى ، مع العمل على رفع مستوى العامية ليلا يبقى هنالك غير الفارق المعتاد فى اللغات الراقية بين لغة الكتابة والخطابة وبين لغة الحديث العادى .

ويلزم لذلك ، الى جانب المجهودات التى تتخذ لتوسيع الفصحى وتيسير أساليب تعليمها ، القيام بتنفيذ المقترح الذى وضعه معهد التعريب المغربى ، وهو استقراء المفردات العامية واستخراج ما يتفق مع الفصحى ، وهذا يستوجب عمليتين فرعيتين .

الاولى – تهذيب النطق بالكلمات العامية التى ماتزال محتفظة بشكلها الفصيح فيما لو كتبت ، حتى يصبح استعمالها متفقا مع الاستعمال الفصيح . وهذا موضوع ألف فيه او كتب عنه عديد من القدماء والمحدثين ، كالسيوطى وثعلب وابن قتيبة واليازجى وعبد القادر المغربى وغيرهم .

والثانية – رد العامى الى الاصل ، اى البحث عن الكلمات العامية وهل هى عربية انحرفت فترد الى أصلها العربى وتهذب وتشاع وذلك كقولنا ، بابتو أصلها بابته بمعنى كان من حقه ، وهى عربية فصيحة ، أو هى جارية على أصل الاشتقاق العربى وان لم يسمع استعمالها عند العرب وذلك كالعروبى فى نوع من الشعر الغنائى يستعمل فى مراسلة المتحابين ، وهو نسبة للعروبة اى المرأة حسنة التفل المحبة لزوجها . او هى كلمة دخيلة ومن اى لغة دخلت ، فينظر فى أمر قبولها معربة اذا كنا فى حاجة اليها كالتلفون ، او ترفض ويدعى الى استعمال ما هو عربى مكانها . وذلك كالبستيون للحصن العسكرى . أو هى من الموضوعات الشعبية لمسميات حديثة فتوثر فى نظرنا على غيرها وذلك كقولهم الحصار فى محل (الدمان) للسيارة ، وهى أفضل من الفرملة والفراميل الجوية مثلا .

علال الفاسى

(I) عبد القادر المغربى ، عثرات اللسان فى اللغة ، ص 6 .